بشـــــار بن برد*

— ٤ —

قيمة غزله وأثره

بقلم الأستاذ أحمد حسنين القرنى

فتر الشعر على عهد النبوة حتى لم يعد له أثر إلا فى تهجم على مقام الدين الجديد، أو رد لهذه الغارة ، أو تشجيع على قتال ، أوإثارة لحمية فى سبيل الفتح والجهاد ؛ فلما وقع الخلاف بين على ومعاوية نشط الشعراء ، ووجد الشعر السياسى بالمعنى الذى يتأدى بهذا اللفظ ، بعد أن وضع أساسه فى عصر النبوة .

واستتب الأمر لبنى أمية فاستمالوا الشعراء بصلاتهم، وبقى لأبناء على أنصارهم؛ فالشعر السياسى مايزال إلى ذلك العهد ناشطاً .

ودالت دولة بنى أمية ، وخفتت أصوات شعرائهم، وقامت الدولة العباسية ، وعمرت المدنية دولتهم وعمتها الرفاهية ، وقام ما يلازم المدنية والرفاهية عادة من مجالس للغناء والشرب التى يكون قوامها الفاتنات من الحسان؛ ويتلو ذلك، أو هو من مقتضياته، التغزل... لذلك كان لابد للشاعر فى هذا العصر أن يكون غزلا سيما إذا كان الشعر منهج حياته .

وبشار الذى لم يقل الشعر إلا ليكسب به قوتاً ومجداً حتى كان فى بدء حياته يهجو الناس فيفزعون إلى أبيه فيوجعه ضربا فيقول له:(هذا يأبت هو الشعر الذى سنجنى – عما قليل – ثمره شهياً ، فان جاءوك فقل لهم : أو ليس الله يقول «ليس على الأعمى حرج» ؟) فاذا جاءوه شاكين لقيهم بتلك الحجة المسكتة فاذا هم يعودون أدراجهم قائلين: « فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار» بشار الذى هذا شأنه لابد أن يكون غزلا ؛ ولكن ... أى غزل جادت به قريحة بشار ؟

هناك أمور لابد من توفرها فى الغزل حتى يكون غزلا سائغا ، منها اللفظ العذب المختار، والتركيب المحكم ، والخيال السامى مع التناسب بين الغزل والمتغزل فيه ؛ وتلك جميعها أمور نال منها بشار ماليست بعده زيادة لمستزيد، فأنت لاتجد فى شعره إلا ماعذب من الألفاظ، ورق من التراكيب ، واستساغه الخاص والعام ؛ أما المعانى فقد ذل له صعبها ،وسلس قيادها حتى لقد كان يأسى إذا سطا غيره على معنى من معانيه فصاغه فى أروع من عبارته، كما وقع له مع تلميذه سلم بن الخاسر حين قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

(*) راجع مجلة «المعرفة» : ج٨ و٩ و١٠ .

فقفاه سلم بقوله :

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

وعندئذ رأى بشار أن الألفاظ استقام منها لسلم مالم يستقم له ، فجزع لذلك واغتم، وقال: (ذهب ابن الفاعلة ببيتى) وقطع تلميذه قطيعة كادت تكون الأبدية لولا من رأب هذا الصدع من الأصدقاء .

يدلك على ذلك ما كان يحرص عليه بشار من التعبير السائغ ، وحب التفرد، والاستئثار بهذا الامتياز ، وذان أمران يصلان بالشاعر إلى التفوق والانفراد .

ولبشار شعر قد تراه تافها، ولكنه يعلل لك تفاهته، فيعطيك بالتعليل صورة جلية لشاعريته التى كانت تتاجى الناس على قدر عقولهم ؛ فبشار الذى يقول :

حوراء ، إن نظرت إليـ ك سقتك بالعينين خمراً
وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهراً
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحراً
وتخال ما اشتملت عل يه ثيابها ذهباً وتبراً
تنسى الغوى معاده وتكون للحكماء ذكراً

وبشار الذى يقول :

ورائحة للعين فيها مخيلة إذا برقت لم تسق بطن صعيد
حسدت عليها كل شىء تمسها وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته على صوت صفراء الترائب رود
كأن أميراً جالساً فى ثيابها تؤمل رؤياه عيون وفود
كأن لسانا ساحراً فى كلامها أعين بصوت للقلوب صيود
تميت به ألبابنا وعقولنا مراراً ، وتحيينهن بعد هجود
إذا نطقت ضحنا، وصاح لنا الصدى صياح جنود وجهت لجنود
فللنا بذاك الديدن اليوم كله كأنا من الفردوس بين خلود

بشار الذى يقول هذا القول ومثيله مما لا يسامى هو الذى يقول فى جاريته «ربابة» :

«ربابة» ربة البيت تصب الخل فى الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فهبك لم تقرأ هذا كله ، أو قرأته غير منسوب لصاحبه، فهل كنت تظنه لشاعر واحد؟ وهلا يداخلك الريب فى هذين البيتين - إن كنت من متمذهبى الشك - فتظنهما مدخولين عليه ؟ ولكنك

حين تطلع على رايه ، وقد جابهه كثير من النقاد بتسفيهها ، وحين تعلم شيئا عن حياته ، تراه كان بليغاً حتى فى هذا النظم الذى لاقيمة له .

لقد كان بشار يحب ذلك النوع الذى نعرفه الآن باسم (السلطة) وكانت تتولى صنعه له « ربابة » وكان يحب البيض ولا يستطيبه من السوق ، ولم تكن جاريته « ربابة » بالمثقفة التى تخاطب بلسان الخاصة ، فانظر إليه وقد تنازل فى مخاطبتها إلى الدرجة التى تستطيبها ، وهذا من البلاغة بل هو البلاغة ، فان الكلمة البليغة التى لاتفهم كالطعام الشهى أمام المحموم ، ولهذا كان النساء يقصدنه دون غيره ليصنع لهن من الشعر ماينحن به أو يندبن به عزيزاً ، أو يراسلن به حبيباً .

ذلك شأنه فى ألفاظه وأساليبه ، وهو شأن من يستحق أن يوضع فى مقدمة الغزلين ؛ أمامعانيه فكم له فيها من إبداع يكرهك على أن تحمله علم السبق والأولوية ، وحسبك أن ترجع إلى النتف اليسيرة التى عرضناها عليك من غزله ، وتستخلص منها المعانى الجديدة التى جادت بها قريحته الجبارة ، أو حسبك أن تقرأ له مثل قوله :

جفت عينى عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

أو قوله :

لم يطل ليلى ، ولكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم

أو قوله :

ومرتجة الأعطاف مهضومة الحشا تمور بسحر عينها وتدور
إذا نظرت صبت عليك صبابة وكادت قلوب العالمين تطير
خلوت بها ، لايخلص الماء بيننا إلى الصبح ، دونى حاجب وستور

وقد أخذ هذا المعنى « على بن الجهم » ولكنه تلطف فى الأخذ فأبدل الماء بالخمر إذ يقول :

ألا رب ليل ضمنا بعد هجعة وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
وبتنا جميعاً ، لو تراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرب

وكم أخذ عنه الشعراء من المعانى التى فتح له مغلقها !! بل مالنا ننسق البراهين ، ونستخلص الحجج على جودة غزله ، أو علو شأنه فيه ، نحن الذين فقدنا شعره فلم تصلنا منه إلا نتف لاتشفى غليلا ، وقد شهد له معاصروه بذلك شهادة قاطعة ؟

ذلك المهدى ، قاتله ، الذى كان ذا بصر بالشعر ومعرفة بفنه وسمينه ، ألم يختره من بين الشعراء غير مرة ، ليصف له شيئاً ، و ليقول فيما يشاؤه الخليفة ؟

فمن ذلك أنه أرسل إليه مرة يقول له : (قل فى « الحب » شعراً ولا تطل ، واجعل الحب قاضياً بين المحبين ولا تسم أحداً) .

أليست هذه شهادة لبشار تقطع بتفوقه على معاصريه وهم واسطة عقد الشعراء ؟

غير أنه وقد ملك زمام الغزل أسرف فى استعماله ، وأفرط فى توجيهه إلى كل من سمع بجمالها ، أو رن فى أذنه صوتها ، حتى لقد ذكر أنه سمع صوت امرأة ففتن به، فظل يراسلها وهى لاتجيب، فلما أزعجتها رسائله قالت لرسوله قل له : ماذا لك فيها وأنت أعمى لاترى جمالها؟ وماذا لها فيك وأنت قبيح الشكل؟ فهاج هائجه ، وجن جنونه وقال للرسول عد إليها فقل لها :

... له فضل على ... هم وإذا أشط سجدن غير أواب
تلقاه بعد ثلاث عشرة قائماً فعل المؤذن شك يوم سحاب

فشكت أمره إلى زوجها فأذن لها أن تدعوه إلى بيتها على مشهد منه ليسمع مايقوله لها هذا الأعمى !! فلما انفرد بها بشار — على زعمه — قال لها :

أمامة! قد وصفت لنا بحسن وإنا لا نراك فألمسينا

فأخذت يده ووضعتها فى حجر زوجها ، فقبض بشار يده منتفضاً فزعاً ، وهو يقول :

طلبت غنيمة فوضعت كفى على شىء أشد من الحديد
على ألية مادمت حياً أمسك طائعاً إلا بعود
ولا أقرى لأرض أنت فيها سلام الله إلا من بعيد

وهكذا كان مسرفا ، وكان مبالغاً فى الاسراف وكان لاسرافه أثر سيىء ، فقد كان أحد الأسباب — لا كل الأسباب — التى اختزلت حياته ؛ ومما جعل لغزله أو لاسرافه فى الغزل هذا الأثر السيىء أن شعره كان كالأنشودة القومية فلا يكاد يلقى القصيدة حتى يلوكها كل إنسان ، ويرددها كل مجتمع حتى حق له أن يقول :

وقصائد مثل الرقى أرسلتهن فكن شغفاً
أوجعن كل مغازل وعصفن بالغيران عصفا

فكانت أولى النتائج أن توجه العظماء بالرجاء إلى المهدى، ومنهم خاله، أن يأمر بشاراً بالكف عن الغزل ، فأجاب المهدى رجاءهم ولكن ... لابد للمصدور من نفثات، فكان مما قاله بعد هذا النهى :

يامنظراً حسناً رأيته من وجه جارية فديته
بعثت إلى تسومنى ثوب الشباب وقد طويته
والله ، رب محمد ما إن غدرت ولا نويته
أمسكت عنك ، وربما عرض البلاء وما ابتغيته
ونهانى الملك الهمام عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضع عهداً ، ولا وأياً وأيته
وأنا المطل على العدا وإذا غلا الحمد اشتريته

وأميل فى أنس النديـ ـم إلى الحيـاء وما اشتهيته
ويشوقنى بيت الحبيـ ب إذا غدوت ، وأين بيته ؟

قد تتوجه رغبة الكاتب أو الشاعر بعض الحين إلى غاية يأباها عليه الملوك فينهونه عنها، فاذا ارتكبت كان ارتكابها بمثابة إعلان لخصومة هى فى الحقيقة خصومة شخصية تلبس ثوب المصلحة العامة ، وإن شاهدت ذلك الآن فقس عليه الأزمنة الخالية ، فالملوك هم الملوك فى كل زمن ، والشعراء والكتاب هم عشاق الحرية وعبادها فى كل حين مهما تباينت مشاربهم ومهما سيموا من الخسف .

نهى المهدى بشارا عن الغزل ، واستجاب بشار لهذا النهى ؛ ولكنك ترى من قصيدته السابقة روح الاصرار على العودة ، وتتبين فيها نية الرجوع طوعاً أو كرهاً ؛ فلما طال الزمن على حبس لسانه الغزل بين فكيه ، فاض الاناء وتدفقت منه الشتائم موجهة إلى المهدى ، وداعية إلى الثورة ضده ، كقوله :

بنى أمية ! هبوا طال نومكمو إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم ، ياقوم ! فالتمسوا خليفة الله بين الناى والعود

فلولا رقة غزل بشار ، وافتتان الناس به ، ماذرع القوم إلى المهدى ، ولولا فزعهم مانهاه المهدى عن الغزل ، ولولا نهى المهدى له ، واسترساله فى النهى ماهجاه بشار ، ولولا هذا الهجو وما تفرع عنه من الشعوبية ما قتل بشار قتلته السياسية الشنيعة التى قد أحدثك عنها .

ولكنك على كل حال قد علمت أن بشاراً كان من أرق الشعراء غزلا ، ومن أدقهم فيه معنى وأسلوباً ؟

أحمد حسنين القرنى

الجبر والاختيار وأثرهما فى الادب

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١٣٦٨)

الآن بعد أن قررنا رأينا فى الجبر والاختيار ، وبينا أيهما يسير وفق العقل والمنطق — لعل طائفة لايروقها هذا التفسير ، فتسألنا إذن عن التوكل الذى أمرنا به الدين ، وكيف يتفق مع المبدأ الذى ننشده ، وهو الايمان بالنفس والثقة بقوتها ، والركون إلى الهمة والعزيمة ؟ ولكنى أوجه نظرهم إلى أنهم لابد متفقون معى على أن معنى التوكل غير معنى التواكل ، فبينما يقصد بالأول ألا يغتر المرء بقدرته ، أو يتيه بعزيمته التى تسبب له النجاح والظفر ، لاعتقاد أن هناك قوة أسمى من قوته ، وإرادة أعلى من إرادته ، إذا بالتواكل يدعو إلى الكسل والضعف ، والاعتماد على غير ما يعتمد عليه ، فينتج أدبا ضعيفا خائر القوى ؛ أما التوكل فانه ينمر فى الأدب أيرك الثمرات ؟

أحمد أحمد بدوى